# رابندرانات تاجور

## كما أعرفه

محمود المنجوري

— ١ —

وُلِدَ تاجور في مدينة كلكتا عام ١٨٦١ م، وكان أبوه صِدّيقاً متعبداً، يخرج كل يوم الى منسكٍ له بالغابة، غدا فيما بعد مدرسة تاجور التي أشرقت منها مبادؤه الروحية والعالمية. وكان تاجور في صباه حدثاً متروكاً لرعاية أم لم ينعم بحنانها إلا قليلاً، اذ توفيت بعد مرض أصابها، فكان لوفاتها في ذكريات تاجور أبلغ الأثر وأعمق التأثير. ولم يجد تاجور في بيته رعايةً، اذ انصرف أبوهُ عنهُ الى منسكه، يحدّث الناس والأتباع فيما يحضر اليه الرجل الحكيم الفيلسوف من النظر والتفكير في النفس وفيما حولها من كائنات. فنشأ محروماً من حنان الأم ورعاية الأب، ولكنهُ خرَّج من المحنة مشغوفاً اذ لجأ الى الطبيعة ينظر فيها ويعيد النظر والتفكير، حتى ارتسمت في خياله الصغير صور الحياة، ولقد سجل تاجور هذه الفترة من صباه في كتاب أرسلهُ الى صديق فقال فيه:

«لم تلبث أن حرمتني الأيام من أمي وأنا حدث صغير فأصبحت وحيداً بالدار، آوي الى نافذته، أرقب الطبيعة فترتسم في مخيلتي ما يجول بأنحائها من صور شتى، لقد كانت لي الطبيعة الرفيق الذي لازمني والذي وجدته بجواري دائماً. إني لا أعرفه حقاً ولكنه رفيق مخلص عندي كل شيء» (١)

ولما بلغ أشدَّهُ ذهبوا به الى المدرسة، ولكنه لم يلبث أن ناله ما يغيظ قلب الطفل البريء من اعوجاج نظام لا يتفق مع ميوله الحرة، فخلق سوء نظام المدرسة من قلب تاجور، المربيَ المجددَ المحبَّ للطفل، والذي يرى فيه العالم منطوياً الى حين، فهجر المدرسة ساخطاً، ولكن والده الشيخ عهد به الى أساتذة آخرين يعلمونهُ في البيت، فلم يغير هذا التعليم من رأيه، ولقد قال يوم افتتح مدرسته

«لقد قلت لكم إني عندما أنشأت هذه المدرسة لم تكن لي خبرة ما بالتعليم، ولكني في الواقع كنت أستمد خبرة سلبية عرفت بها ما يجب ألا يعامل به الطفل، وهو ما كان موضوع آلامي، وكنت أتألم مدة طفولتي من شعوري بأن التربية التي كنت أتلقى هي نظام في مدرسة لا صلة له بالعالم»

ولبث تاجور في البيت بين أساتذته، فتنبهت مواهبه التي أشرت منذ الطفولة حب

(١) «الذكريات» لتاجور

الطبيعة وجمالها، فمال الى الادب في حداثته ، ونظم الشعر والاناشيد، وكتب القصص الصغيرة محاكياً شعراء البنغال ، حتى اذا ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، استرجع ما بقلبه من صور واستعاد اشباح السنين الماضية ، واتخذ منها العبرة والتفكير ، واستوحى الطبيعة التي نشأ في مهدها يتيماً محروماً ، وصوّر الآلام التي تتابعت عليه منذ فقد أمه ، ومنذ حرمانه معين العطف والحنان ، واستوحى الى هذا ما كان قد قرأ في الكتب الدينية من أساطير وقصص فكتب في هذه الفترة « أناشيد المساء » ثم « أناشيد الصباح » وهما صورتان متقابلتان من وجهيْ الحياة التي تعرض الشباب،يأساً حيناً وأملاً حيناً، حزناً حيناً وفرحاً حيناً ، حبّاً حيناً وترددا حيناً

ولقد كان تاجور في هذه الفترة يلحن الاغاني الدينية ويرتلها في المعبد بصوت أغن حبّب الناس فيه ولفت اليه النظارهم . وفي هذه الفترة الدقيقة من الحياة ، عندما يتفتح قلب الشباب ، ويقبل ربيعُ الحياة بهيجاً أو عابساً ، في هذه الفترة الدقيقة من الحياة يجب أن نبحث عن أثر المرأة في الشاعر . ولكن تاجور قد تركنا دون ان يرشدنا الى المرأة التي ألهبت قلبه ، والتي علمتهُ أغنية الحب الاول — لقد قال ان الطبيعة هي التي علمتهُ كل شيء،ولكن الطبيعة لا تعلّم الحبّ ؛ وإنما تعاون الشاعر على ان يدرك معاني الحب ، وهو لم ينشر كتبه حتب تأليفها ، وهو لم يقدم لنا شعره طبق السن التي قاله فيها— ولذلك اضطرب ادباء الغرب جميعاً في تخريج شعر الشباب من بين أشعار تاجور الصوفية ، وذهب أغلبهم الى وهم خاطىء فغلّبوا الصورة الصوفية على جميع أشعار تاجور — ولكن كيف لا يحب تاجور ، وهو شاعر الحب الذي حلّ الذات البشرية على طريقه المقدّس ؛ كيف لا يحب تاجور وهو الذي يدعو الناس الى الانسجام بروح الكون — ان المرأة ولا شك ، قد لمست بأناملها أدقّ وأعزّ الانغام القدسية في قلب هذا الشاعر — ان خيال المرأة يدور دائماً في شعره ، بل ان شخصها لقائم في ديوانه،ولن عطفها وحنينها لا يزالان دائماً بين صفحاته الكثيرة التي ألّفها في عهوده المختلفة

وأغلب الظن عندي ان تاجور كتب في فترة شبابه رواية « شترا » وهي مسرحية غنائية اقتبس فكرتها من اساطير الهند السنكريتية من كتاب المهابهراتا المقدّس . و « شترا » امرأة نشأت نشأة الرجال لترث ملك أبيها ، ولكن قلب المرأة لا يغلب ولا تسكت فيه الانوثة ولا الحنين الى الطفل هي لم تخلق الا لتكون عوناً للرجل ومهبطاً لقلبه وأمّاً لولده ، ومشاعرها جميعاً توحي اليها ان تكون نظاماً مكملاً للاضداد فهي كالسلب من الايجاب،وكالضوء من الظلمة وكالحركة من السكون (١) — وعندما تقابلت « شترا » بارجونا أول رجل

(١) « بي » في محاضرة سنة ١٩٢٦

لقيت تداعى استرجاعها وتنتحت أنوثتها وعصف الحب بقلبها . وهنا يقول تاجور على لسانها :

« لقد شعرت أني امرأة وخلعت زي الرجال وعشت بقلبي الرجل »

ولبث تاجور في كلكتا حتى دعاه ابوه الى القرية ليتولى أمر ضياعه فعاد الى الريف وما لبث طويلاً حتى تزوج ، وكانت سنه قد قاربت الثالثة والعشرين . وقد أفاد هذا الانتقال تاجور اذ هيأ له الاندماج في الريف والاختلاط بالشعب والاستماع الى أحاديث الناس وأغانيهم وتاجور يقرر ان فلسفته انما هي فلسفة الشعب الهندي وفي هذا يقول : —

« لقد يحسب بعضكم انني قرأت من أرسطو ، وربما كان لي حظاً من الفلسفة حظ ونصيب ، لكن ليس حظاً يتيسر على شعري ويبدو قصائدي الى قاع سحيق تغمره مياه المحيط فلا يرى من خلالها الا كما ترى الاسماك الصغيرة تائهة وسط اليم العظيم ، إنما أنا ككثيرين من أهل الهند وفلسفتي لا تتعدى فلسفة الشعب ، وتلك عندي فلسفة الشاعر » (١)

في فترة الريف عاش تاجور زوجاً باراً بزوجه واولاده ، هادئاً قانعاً بعواطفه ، فيها استمتع بجمال الحياة بقدر ما استمتع بلذة فكره وعصارة أخيلته ، اذ ألف في هذه الفترة أغاني وقصصاً وكتب روائع الشعر ، ومن مؤلفات هذا العهد « البستاني » و« هبة العشاق » و« الهجران » وروايات ومسرحيات أخرى متعددة

لقد كان هذا العهد هو ربيع حياة شاعرنا الحكيم ، لبث فيه الى الاربعين ينعم بمباهج الحياة وأسرارها اللينة ، ويلق الدنيا من وجهها الضاحك الباسم — ولكن ماذا بعد الربيع ؟ لاشيء غير خريف يترك الشجرة عارية من ورقها وزهرها . لاشيء غير وحدة في صحراء الحياة المجالدة الزمن ؛ لقد حلت العاصفة بدار تاجور المبتهج فماتت زوجة وانطفأ مشعل ابنته الكبرى ثم فجع الشاعر الحزين في أصغر ابنائه ، كل هذا في بضعة أشهر ولكن تاجور ما كان ليبتئس ، ولكنه كان ليرضى ، يستقبل الشر فيأنس منه الخير . ولقد سجل تاجور هذه الفترة في ذكرياته

« ان عاصفة الموت التي اجتاحت داري وقصفت زهرات أبنائي ، كانت علي نعمة ورحمة ، فقد أشعرتني بنقصي ، وبحاجتي الى انشاد الكمال وأفهمتني ان العدم لا يفقدنا ما يضيع منه . لقد عرفت حقيقة الموت ، إنه الكمال المطلق ، وليس من شيء في الحياة يذهب عبثاً ، بل مرده الى رحمة ، تاركاً العبرة نتلوها ونفكر فيها

لقد أدركت أنني في هذا الوجود لم توصد علي أبواب سجن . لقد انتزع البقاء دهراً كان في وجودي ، ولكني آمنت في هذا القصد بمعنى الحرية ، فاقتربت السكينة من نفسي ، ولم تعد الحياة تثقل علي ، اذ الموت واقع حتماً في يوم ما » (٢)

في الحق ان هذه الفجيعة هي التي كانت السبب في تعريف تاجور لعالم الغرب ، اذ خرجت منه الشاعر الفلسفية التي صنفها قراءاته في اللغة البنغالية والتي ألف منها في أسلوبه وخياله

(١) خطاب تاجور في مسرح حديقة الازبكية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ (٢) ذكريات تاجور

كتاب « جيتا نجالي » أي « القربان الشعري » الذي تقدم به الى العالم الغربي لأول مرة فعرفه وأحبه وأقبل على ادبه وشعره وفلسفته اقبالاً لم يلقهُ شاعر شرقي قبله غير عمر الخيام

و«القربان الشعري» شعر مسجع ترجم الى الانكليزية من البنغالية وهو يصور هذه الفترة الانقلابية من حياة تاجور، يصور الخريف بعد ربيع مبتهج، يصور صلوات وابتهالات متعالية من قلب حكيم شاعر مدرك لحقيقة الحياة، هو تصوفه ورمز الى المثل العليا والجمال المطلق، وهو صورة مقابلة لهذا الشعر الغزلي العفيف الذي ثار به قلب تاجور أيام شبابه، والذي جمع من الحب والألم والأمل والحيرة واليقظة والتطلع والاستكانة والتردد ما جمع، والذي ضمّ من أطياف المرأة أشباحاً حلوة تلوّح بالآمال والأماني تارة وبالغدر والخيبة تارة أخرى. هذا «القربان الشعري»[1] قد دفع الناس في الغرب من أدباء ونقّاد وكتّاب الى ان يخطئوا في فهم تاجور، لأن تاجور قد قابلهم به في صورة المتصوّف فلما قابلهم بعد ذلك بأشعاره التي نظمها أيام الشباب حسبوا تاجور أيام الشباب هو تاجور بعد الاربعين — على ان تاجور في «القربان الشعري» كان الطائر المأخوذ بجمال الله وجلاله، ولقد قال عنهُ أحد النقّاد الفرنسيين «إن القربان الشعري كأس طافحة بالفرح والامل ومحبة الله» وانك لتدرك من ابتهال تاجور الذي يقول فيه:

« أنت الذي اريده، انت وحدك

أنت يارب! أنا معدم اليك، مأخوذ أبداً بك في صمت

لست أعرف كيف أدرك أسرار الفلك

إن موسيقاك لتضيء الدنيا وتسري بأنفاسها في ارجاء السماء

بينما يجتاز نبعها القدسي السدود ويجرف الاصفاد .

إن قلبي تواق الى الاتصال بأغنيتك

وقد جاهد على ان يخرج الالحان طاهرة ليلتئم بألحانك .

ولكن عبثاً ما فعل قلبي

سأتكلم إذن ولكن أنّى ليان ان يسمو على الالحان

إني جاهد لأبعد عن نفسي خطايا الزمن

اني واثق بك أيها الحق الكريم الذي أشعلت نور الحكمة في عقلي

سأبذل نفسي لأتصلك في جميع اعمالي

أيا قويّ ان قوتك تهبني الصبر على العمل

نعم انك لتدرك في هذا الابتهال الصورة الصوفية التي أخذت بلب تاجور، وانها لواضحة المعنى في غير رمز، وانك لتجد هذه الصورة الصوفية حاسرةً ايضاً في ديوان «قطف الثمار Fruit-Gathering» — والصورة الصوفية التي تدور في شعر تاجور ليست إلاَّ الميراث الشعري الخالد التي تلقاه الشاعر الحكيم من قلب هذا الشرق الكبير، الذي أوحى اليه بأصول المدنية الروحية التي لن تقهر ولن يمسّها وهنٌ أو ضعف

(١) ترجم «القربان الشعري» الشاعر الفرنسي اندريه جيد سنة ١٩١٤

ولقد قدّم « القربان الشعري » للعالم الغربي الشاعر الايرلندي الشهير ييتس بمقدمة بليغة قلّد فيها تاجور إمارة الشعر في العالم في القرن العشرين ، ولقد خاطب ييتس أهل الغرب ، وهو يقدم لهم « القربان الشعري » في قوله : —

دونكم نموذجاً سامياً لادب الشرق يجود به شاعره العالمي تاجور ، فيعطيكم صوراً للحب ليست كما عهدتم معشر الشباب من مجون وعبث ، ستجدون فيها أسمى الحقائق ترتيلا جميلا يدنيكم من الجمال ويقربكم من ادراك الحق والجلال ، ان تاجور صورة لهذا الشرق الخالد العظيم ، ومهمة في الحياة هو ان يكشف للروح ، ويعرف اسرار وحدتها بين الكائنات ويتخذ له من تيهها حصانة لادراك الحق المطلق وتهذيب العقل والقلب حتى تدرك الانسانية الكمال المثالي

ولبث الغرب متأثراً بوحي هذه الصور الصوفية العذبة ، فلما أخرج تاجور دواوين اشعاره التي جادت بها قريحة الشباب ، بقيت هذه الصور مترددة مطبوعة في أذهان الادباء ، فاختلط عليهم الأمر وتناوله نقّاد بأنهُ شاعر صوفي بارع في المذهب الرمزي

وفي الحق ان ثمرات الشباب كديوان « البستاني » The Gardener و « الطيور الشاردة » « Stray Birds » و « الهلال » The Crescent Moon و « هبة المشتاق والهجران » و « شترا » ، كل هذه وما اليها من اشعار الشباب انما تكشف عن ناحية بهجة من حياة تاجور الاديب العظيم . وتدنينا من أمر قد التبس على كتّاب الغرب ونقّاد تاجور ، وهذا الامر جليل خطر في حياة الشاعر وهو ليس بأفكار صوفية ، وانما هو وحي المرأة في قلب كل فنان وأديب وصاحب رسالة كشاعرنا تاجور

ان تاجور لا ينكر أثر المرأة فيه ، هو يراها قوة تعينه على الحياة ، لا يناهضها ، ولا يرى فيها الخصم العنيد ، بل ينشد فيها الحب والرحمة والتعاون ، وهو يخاطبها في ديوانه « البستاني » خطاب الفن والموسيقى فيقول لها :

أيتها المرأة لست من صنع الخالق وحده
بل أنت من فن الرجال
هم أبداً يغترون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء ينسجون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ،
والفنانون يسبغون على جبينك فناً من الخلود الزاهر
والبحر يأتي بدره ، والمناجم تبرز عسجدها ،
والبساتين تتفتح عن أزهارها
كل هذا ليكون لك جميعاً حلية وزينة وبهجة .
بينما رغبات القلوب تنفح شبابك بهاء
أنت ... نصف امرأة ونصفك خيال .

فالمرأة في شعر تاجور عامل حي يقظ متحرك ، خرجت في فترة شبابه من نعيم العبقرية أعز ما تجود به الحياة من حب وجمال وسمو وفن وأدب وموسيقى . كانت له فيما بعد

الاربعين سبيلاً مأموناً لادراك حقائق الأشياء ومعاني الصوفية العذبة التي ورثته اياها قراءاته في أدب الهند وفلسفة الشرق الحكيم ، وقد استطاع تاجور ان يكتب فلسفة خالدة لهذه المعاني كلها، وان يبشر بها كأوضاع ثابتة لمدنية روحية ، يجب ان تسرد العالم في وحدة متماسكة بعيدة عن الاثرة والانانية ، وما ينحو اليه الغرب من تعاليم آلية قائمة على المادة وحدها . فيتحدث تاجور عن الحب ويحاضر تلاميذه وأتباعه في مدرسته فيقول لهم :

« عجيب أمر الحب ، لا تتنافى فيه العبودية والحرية ، هما لا يتعارضان عند بابه ، بل يتلاقيان فيه ويأتلفان ، لان الحب يستعبد بقدر ما يحرر ، وان حاجة النفس الى العبودية لا تقل عن حاجتها الى الحرية ، وان من أسمى معاني الحب ان يخضع للقيود ويرضى بالحدود كما ان من معانيه السامية ان يحطم الاغلال ويحلق في الآفاق بعيداً عن كل سد وحاجز . الا ان العبودية في الحب تحتدم كالحرية . اوليس يسير غور الحب بما يحتمل الحب من ذل وعبودية ؟ » (١)

وغاية الحياة عند تاجور ان تُطبع الحياة البشرية بطابع الخير والمحبة ، وان تنتزع عنها طبيعة الانانية والاثرة ؛ فهو يقول :

« ومتى استتب في ضميرنا نظام للحياة ، واطمأن الى ما في الخليقة من ائتلاف منتظم ، أصبح ادراكنا لحب الخير جلياً واضحاً ، واتسم طابع الجلال حياتنا بميسم الخير والحب العام ، وتوجه هذا بالمدنية قبل البقاء والخلود ، هذا هو غاية الحياة »

وأعلن تاجور رأيه في الموسيقى فقال :

« الا ان الموسيقى هي أنقى وضع للفن ، لهذا كانت ادل تعبير وأوضح بيان للجمال في شكله وروحه ، وهي أقل الأوضاع حفلاً بأثقال التعبير عن الفن الخالص . وأرق أوضاع الموسيقى وأقربها من الفن والجمال هو الصمت والعبادة »

وليس الادب والشعر في رأي تاجور خيالاً مكذوباً ولكنهما حقيقة ومتاع بالحرية ندركها في نفوسنا وفيما حولنا من كائنات :

« الوصول الى حقائق الاشياء ، هو المتاع الحق بالحرية ، ولبلوغ هذه الغاية ولاكتناه الخفية التي تعمل ابداً دوننا يجب ان نبحث وان نطيل البحث وان نتصل بالاشياء المحيطة بنا ، فاذا اتصلنا بالاشياء من طريق روحنا كشفت لنا عما فيها من سر ووهبتنا حقائق الحقيقة . وعندئذ نشعر بها تمام الشعور ، ونعي هذه الاشارة الباهرة في الكون كله والتي لا [illegible] الا [illegible] عين الروح

والوصول الى الحقيقة وسيلة الشعر ، فالشعر هو جواب الروح الخالدة ، نداء الحق الكامن في كل كائن والشاعر هو الذي يرى الحقيقة ويبينها ، الحقيقة كما هي لا يزينها الوهم والحقيقة من حيث هي جمال مطلق » (٢)

وليس من مطالب الشعر أن يكون فلسفة ولكنه لن يروق معانيه الا اذا وجه وجهة الفلسفة . وأعذب الشعر ما اتصل بالحياة ، وأوصلنا اليها من طريق فهمها وادراكها ، ولا

(١) فصل من كتاب Realisation in Love سعد [illegible]

(٢) محاضرة بالقاهرة بمسرح الحديقة سنة ١٩٢٦

يكون الشعر متعة إلاّ اذا أطلعنا على خلود الروح من طريق الوصف والخيال

والشعر والفلسفة لا يتناقضان ولكنهما يتعاونان ، ولن يكون شاعراً المتشائم المهزوم ولا الثائر المحطم الأعصاب ، لان الشعر هو ترديد لنغمات قلب كبير مفعم بالايمان والحب والنور والهدوء والسلام ، ولن يكون شاعراً هذا الملحد المرتاب في الروح العليا التي تسيّر الكائنات ، ولن يكون شاعراً هذا الزاهد ، لان الزاهد عدو الحياة ، وكيف يشعر بالحياة عدو لها يناقضها ويعلن سخطه على منشئها . ان الذي لا يرى في الحياة جمالاً لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يبحث عن الجمال لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يدرك كنه الروح لن يكون شاعراً . يجب ان يفهم الشاعر الحياة أولاً ، ويجب ان يخلق من شعثها نظاماً منسجماً ومن شرها خيراً ، ويرقب الأشياء من خلال الفناء ، ويرضى من فواجعها بما تتركه هذه الفواجع في النفس من تهذيب واصلاح . هذا هو الشاعر أو هذا هو تاجور الشاعر

وأما الفيلسوف فهو الذي يستطيع ان يعبر عن آراء الناس وعقائدهم ، والذي يكشف المعاني المسجاة في الاشياء التي تحيط بالحياة ، وينفذ الى ما وراء الاشياء تاركاً للشاعر ادراك الجمال والفهم من مظاهر هذه الاشياء ، هو يبحث عن الحياة داخل الاشياء واجداً الحقيقة في كل شيء ، داعياً الى الوحدة الروحية بين الكائنات جميعاً . والفن في نظر تاجور :

«هو شكل يسمو بالحياة البشرية فوق ما تتيح عليها الآنية والمادية ، وهو يفيدنا تعبيراً وصفاءً ، ويحررنا من قيود الاوضاع والعرف ، والفنان هو الذي يطلق في نفوسنا جمال الروح ، ويمتع فيها ادراك الحقائق (١)

هذه بعض مقوّمات الثقافة الادبية والفنية التي أعلنها تاجور للغرب ، وهو وان كان عالميّـا في معانيه ومقاصده ، إلاّ أن صورة البيئة الهندية وصورة الشرق تلازمان شعره ولا تفارقان قلبه أبداً ، فالنهر والربيع وشجرة المانجو وزهرة اللوتس والحناء وأوراق الموز وحقول الأرز والطاووس ، والغادة ذات النقاب الشف ، والألوان الزاهية ، والأحجار ذات الأثر الباهت — جميع هذه الصور الشرقية تدور في شعر تاجور العالمي فتكسبه حلاوة وروعة من روح الشرق الخالد . فهي صور تدور في شعره تبحث عن وحدة العالم في فلسفة والهام صادق يوحي ادراك ما وراء العلم من الوعي الداخلي ، وابراز المضمر من هم والنفس في اطار يلهم المعنى تلقائيّـا

وتاجور فيلسوف يدعو الى الاتصال بالعالم ، وهو بهذه الدعوة يهدم خرافات الهنود التي تدعوهم الى التقشف والانصراف الى النفس — ولقد وجد في الرحلات المتواصلة سبيلاً الى هذا الاتصال فرحل الى اوربا وأميركا وطاف ممالك الارض غير مرة وقابل الملوك والقادة

(١) محاضرات تاجور في كتاب سدهانا

والزعماء ، [1] وأعلن لهم رأيه في صور مختلفة — وعاد الى بلاده ، وفي نفسه حسرة باكية على المدنية الغربية ، مدنية الانانية والاثرة ، مدنية الفتك واذلال الانسانية واحتقار كرامة الروح ، مدنية الجشع والجوع التي قال عنها يوم عاد «انها حقًّا مدنية ترقص فوق البركان»

وجد تاجور عند ما عاد من اوربا سنة ١٩٢١ ان عليه مهمة الرجل الاجتماعي المصلح وان ما فكر فيه شاعراً وفيلسوفاً وحكيماً يجب ان يعالج من طريق العمل الاجتماعي ، وان رسالته للانسانية يجب ان تؤدى في وجه جديد ، من طريق التعليم والاصلاح والدعوة والتبشير للمبادىء الحقة ، انقاذاً للبشرية ان تنهار ، فجدد مدرسته في مدينة بلبور التي كان قد أنشأها للاطفال في سنة ١٩٠١ وغير اسمها من «شانتي نكتان» اي « مرفأ السلام » الى معهد عالمي سماه (فسفا بهاراتي) ودعا فيه الى تعاليم جامعة غير ناظر الى جنس او لغة او دين او لون . وأعلن يومئذٍ

« بان يكون مهم هذا الجيل هو محو الاثرة من نفوس بنيه ، وان يجاهد الناس في سبيل تغليب الخير في مواطن الانسان وان يحاربوا الشر ويدفعوا بالغين شعورهم وكرامتهم وان تمحي فوارق الجنس واللون وان تسود العالم الوحدة الروحية »

هذه هي المعاني السامية التي بشر بها تاجور ، ثم أنذر الغرب في محاضرات أذاعها عليه في اوربا واميركا

« إني مشفق على كنوز هذه المدنية الغربية . ومن الواجب انقاذها مما في نفيه من أثرة وأنانية ، يجب ان تسودها الروح ، وألا يندفع الشباب في عصبية مهلكة وراء العقائد والآراء الهادمة »

ويخشى تاجور ان يصاب الشرق « بداء الغرب» فيصاب في أعز ما ادَّخر من ميراث روحي ولقد بكى تاجور عند ما وصل اليه ان اليابان ضربت الصين بالقنابل وأذاع في اكتوبر سنة ١٩٣٧ رسالة لاسلكية استنكر فيها ان تقوم أمة من الشرق تجتاح أمة شقيقة لها ، وطلب الى ساسة اليابان أن يحفظوا روح الشرق الكريم ، وألا يندفعوا وراء داء الغرب الوبيل

وكتب رسالة الى شاعر اليابان « يوني ناجوتشي » قال له فيها : —

«إن الشرق فجر الضمير الانساني يأبى اليوم ان تضرب اليابان المدن البريئة في الصين وان تقتل الاطفال والشيوخ والاشجار والحيوان بالقنابل »

على ان رحلات تاجور الى العالم الغربي لم تكن السبب في تعريفه للغرب ، فلقد سبقته اليه شهرته ، فنحه مجمع ستوكهلم جائزة نوبل في الآداب في ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٣ ، وقرر ان شعره يشمل جميع مطامح النفس . وشهد تاجور مؤتمر الاديان سنة ١٩١٢ واحتفل بعيده الخمسين سنة

---

(١) زار تاجور انجلترا وفرنسا سنة ١٩١٢ وحضر مؤتمر الاديان في باريس في هذه السنة ثم زار أوروبا سنة ١٩٢١ وطاف بها ثم زار اليابان وأميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب أفريقيا والعراق وكندا وآخر زيارة لأوروبا كانت سنة ١٩٢٦ حيث زار تركيا الحديثة وإيطاليا الفاشية وزار مصر في آخر زيارة له

١٩١٢ ، وترجمت كتبه بعد نشر «القربان الشعري» الى جميع اللغات . وأنعم عليه ملك الانكليز في سنة ١٩١٥ بلقب «سير» ولكن تاجور غضب في سنة ١٩١٩ عندما شعر بأن الانكليز قد أساءوا الى أهل البنجاب في مأساة «امرتسار» فاحتج لدى الحاكم ، وامتنع عن قبول هذا اللقب . وأظهر عطفه على غاندي وان كان لا يتفق واياه في سياسته وقال :—

« إن الشرق يأبى ان يؤخذ بالعنف »

ولقد سألت تاجور يوم زار مصر في سنة ١٩٢٦ بعد ما طاف ممالك اوربا ، عما لفت نظره فيها فقال

« أنا أخشى ان تنهار هذه المدنية ، وفيها ذعر وقلق لا يعوض ، إن أوروبا تعاني تيارين قويين متنافسين تيار الشيوعية وتيار الفاشستية ، وكلاهما تيار عنيف جارف . وانا لا أؤيد العنف في اي مظهر من مظاهره »

ولقد أثرت في نفسي زيارة تاجور ، وأيقنت عندما سمعت صوته في نبرات متقطعة هادئة عذبة منسجمة تسري الى أذني ، فتأخذني بخيال عذب يخلق في النفس فيضاً من الاحلام ، أيقنت ان هذا الصوت انما هو ترديد نفس موسيقية بفطرتها ، وآمنت بما كنت قد قرأته عنه من قبل من ان تاجور موسيقي يلحن بنفسه اشعاره وصلواته ، وانه لحن أكثر من ثلاثة آلاف أغنية من أغانيه . وأدركت يومئذٍ من جلال روحه وسهولتها وبراءتها حبه وشغفه بالاطفال ، ووجدت في جاذبيته ما يبدي الارواح البريئة اليه ، وان من أسرار عظمة هذا الرجل الحكيم البساطة وروح الطفولة الثابتة في خلقه وتعاليمه

ولقد احتفلت به مصر يومئذٍ ممثلة في مليكها الراحل الكريم وفي زعمائها وقادة الفكر فيها ، وأذكر انهُ عند ما تشرف بمقابلة المغفور له الملك فؤاد طلب الى جلالته ان يُهدي الى جامعته بالهند الكتب الادبية التي صدرت بالعربية بمصر التي تعين الهند على التفاهم مع الروح الاسلامي الصحيح . وقال : لقد بلغت مصر من الروح الاسلامي ما لم تبلغه امة اسلامية اخرى

ولم يكن تاجور الى أكتوبر سنة ١٩٣٢ من مؤيدي المهاتما غاندي في آرائه السياسية ، ولكنهُ انضمّ الى غاندي عند ما صام صومه الطويل ، داعياً الشعب الهندي ان يلغي الفوارق بينه وبين الانجاس ، وقال يومئذٍ تاجور :

« إن إزالة الفوارق وتحطيم ... الى ... هو أعظم ... يصبو اليه عمل بشري »

ولتاجور نفس لا تصيبها الشيخوخة ، فهو دائماً مقبل على الحياة متذوق جمالها ، مبتهج بها ، ويقول :—

« إننا لن نفهم الحياة إلا اذا فرحنا بها ، فالفرح هو سر المعرفة بالاشياء ، والبهجة هذاء روحي لا ينضب والفنون تعيننا على هذا الفهم دائماً »

فلما بلغ تاجور الثامنة والستين شغف بالرسم شغفاً كبيراً ، وأخذ يخرج ما كان يجول

بنفسه من صور ومعانٍ ومشاعر والهامات على اللوحة ؛ متخذاً الالوان والرسوم أداة لتعبيره . وقد أقيمت لصوره معارض في لندن سنة ١٩٣٨ ، فكانت قصائد من الشعر ملونة في الصور ، ثم عرضت صوره في برمنجهام وموسكو وبرلين وميونخ وباريس ونيويورك . وألقى تاجور في أميركا محاضرات ، نقد فيها المدنية الاميركية ، وبعث الى الاميركيين صورة من فكرة الشرق في معنى الوطنية وقال :—

« إن القومية يجب ان تكون عالمية وألا يندفع الشاب بأعصابه الهائجة وراء دعوات الوحدة والقدة ؛ فهذه الحمية الكاذبة انما هي عمل ليس من الخير في شيء ، فهي اندفاع عنيف سيؤدي الى اراقة الدماء والدمار وتقول : « إن التعاون الدولي لا يكون بعقد المعاهدات وانما يكون بالتقارب الروحي والتفاهم بين الشعوب » (١)

وعندما بلغ تاجور الثمانين منحته جامعة اكسفورد لقب دكتور في الآداب ، وكانت السر موريس جوير كبير قضاة الهند أن ينوب عنها ويقدم لتاجور براءة اللقب في قريته تقديراً لآدابه وتعاليمه . وظلت روح تاجور عالية سامية في اجوائها على الرغم مما اصابه من ضعف في أعصابه ومرض لازمه طويلاً ولبث قوي الروح حتى أطفئ سراجه في ٧ اغسطس ١٩٤١ ليتبوأ مكانه المقدس في سماء الابدية الخالدة ، فلقي ربه غاية ما كان يصبو اليه في حياته شاعراً وفيلسوفاً وفناناً . وليس الموت في نظر تاجور الا الاتصال بالله والفرح به ، وليس هو انفصالاً مقطوعاً وانما هو لون آخر من ألوان بقاء الروح وخلودها ، أو وجه آخر لهذه الحياة البشرية ، وهو الوجه الخيّر الفاضل ، وتاجور يقول لرفاقه في المدرسة : —

« لا تبكوا أيها الرفاق ، ولا تخشوا الموت فلكم فيه مسرة ورضا ، ولكم فيه الوصول الى الحق المطلق ولكم فيه مصير مريح موصول بالحياة الابدية — لقد دعينا الى الحياة فجئنا وبورك لنا في حياتنا ، وستدعى الى الحياة مرة أخرى على ضفاف الابدية ، حيث نمس حياتنا في لطف الله ، وتتمتع بوجودنا بين يدي الحقيقة المطلقة . انكم أيها الرفاق كالطفل يبكي حينما تنزع أمه ثديها الايمن من فمه ، مع أنها لا تلبث أن تناوله الثدي الايسر الذي يجد فيه العزاء والسلوى » (٢)

ولتاجور في القربان أنشودة يقول فيها :

« لقد أجاز لي صاحب الامر الذهاب
فودعوني يا رفاقي
اني محييكم جميعاً ، ثم لاحق في سبيل من سبق
وهذا مفتاح بابي أرده ،
وها كم داري قد نزلت عن حقي فيها
واني لا أسألكم غير ودٍّ وداع طيب »

فوداعاً يا تاجور ، يا من ثويت في ضمير الحياة ، بعد أن ملأت كأسها شعراً وحكمة ومحبة وفلسفة ، وقدمت أشهى قطاف عمرك ، قرباناً للانسانية مبذولاً

(١) كتاب القومية لتاجور (٢) محاضرات تاجور